10

الإلحاد

عام ١٧٩٠، نَزل المقدس چديدياه مورس على بوسطون من أقصى أطراف ماساتشوستس الريفية، وشن حربا ضد دين الألوهية الحلولية الطبيعية Deism، الذى كان لتوه قد بلغ ذروة تطوره فى الولايات المتحدة. انضم إلى هجومه مئات الوعاظ، وبحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كانت ألوهية الطبيعة قد هُمّشت، وأصبحت صيغة جديدة من المسيحية عقيدة أمريكا المركزية. عُرِفت تلك العقيدة باسم «الإنجيلية التبشيرية» وكان هدفها هو تحويل تلك الأمة الجديدة إلى اعتناق «بشارة» الإنجيل. لم يكن لدى الإنجيليين متسع من الوقت لرب ألوهية الطبيعة القَصيّ، وبدلا من الاستناد إلى القوانين الطبيعية، أرادوا العودة إلى المرجعية الإنجيلية، إلى الالتزام الشخصى بالمسيح، إلى دين قلب لا دين عقل. رأوا أن العقيدة لا تتطلب الفلاسفة أو العلماء المتخصصين؛ فهى شأن بسيط يتطلب القناعة القائمة على المشاعر والعيش الفاضل.

obeikandl.com

كان ٤٠٪ من الأمريكيين الذين يسكنون التخوم «تخوم الولايات» يشعرون بازدراء الحكومة الجمهورية الأرستوقراطية لهم، والتى لم تكن تشاركهم معيشتهم الشاقة المُضنية بل أثقلتهم بالضرائب تماما كما فعل البريطانيون. وكانت تشترى الأراضى للاستثمار دونما أية نية منهم فى التخلى عن رفاهية العيش بالساحل الشرقي. كان سكان التخوم من الرجال والنساء على استعداد للاستماع إلى الوعاظ الجدد الذين أتوا بموجة جديدة من الإحياء عُرِفت باسم «اليقظة العظمى الثانية» (١٨٠٠– ١٨٣٥). كانت تلك اليقظة أكثر راديكالية سياسيًا من الأولى. وكانت مُثُل أنبيائها جد مختلفة عن مُثل الآباء المؤسسين. لم يكونوا رجالا متعلمين، وبدت مسيحيتهم الشَّعبَوية غير المصقولة على بعد أميال ضوئية من الألوهية الطبيعية لآدمز، فرانكلين، وچفرسون. بيد

أنهم كانوا أيضا ينتمون إلى العالم الحديث، واستطاعوا نقل مُثل الجمهورية إلى الشعب بأسلوب عجز عنه القادة السياسيون.

بدا لورنزو داو، بشعره المشعث المسترسل، مثل يوحنا المعمدانى وقد ظهر فى عصر متأخر؛ كان ينظر، مثلا، إلى العواصف على أنها مُرسلة من الله مباشرة. ومع ذلك كان دائماً يبدأ وعظاته باستشهادات من چفرسون أو پاين، ويحث أتباعه على «التخلى عن الخزعبلات، وعلى أن يفكروا لأنفسهم». حينما خرج بارتون وارن ستون على الطائفة المشيخانية ليؤسس كنيسة أكثر ديمقراطية، أسمى انفصاله هذا «إعلانا للاستقلال». أما چيمس أوكلى الذى كان قد قاتل أثناء الثورة وكان مُسيّسا تماما، فقد انفصل عن مسيحية التيار الرئيسى ليؤسس كنيسة «الميثوديين الجمهوريين». أُطلق على هؤلاء

الأشخاص لقب «عباقرة عامة الناس». استطاعوا ترجمة المُثل الحداثية مثل حرية الكلام، والديمقراطية والمساواة إلى صياغة تستطيع الطبقات الدنيا فهمها وتبنيها. واستنادا منهم على أحد التوجهات الراديكالية للإنجيل، أصروا على أن الله يحابى الفقراء والأميين، وقالوا بأن المسيح وحوارييه لم يتلقوا تعليما جامعيا، من ثم، لا يجوز أن يظل أفراد الشعب أسرى رجال الدين المتعلمين؛ فلديهم من الذكاء الفطرى ما يمكنهم من فهم المعنى الواضح للنصوص الإنجيلية بأنفسهم. حشد هؤلاء «الأنبياء» السكان فى حركة جماهيرية عمّت جميع أنحاء البلد، واستخدموا الموسيقى الشعبية ووسائل الاتصالات الحديثة استخداما إبداعيا. وبدلا من فرض الحداثة من أعلى كما كان الآباء المؤسسون يريدون، فقد أوجدوا حركة تمرد قاعدية ضد المؤسسة العقلانية، وأحرزوا نجاحا كبيرا. اندمجت الطوائف التى أسسها سميث وكيلى وآخرون لتكوّن، فيما بعد، طائفة «تلاميذ المسيح» التى أصبحت عام ١٨٦٠ خامس أكبر طائفة بروتستانتية بالولايات المتحدة.

قادت المسيحية الإنجيلية التى كانت متجذرة فى الحركة «التقوية» للقرن الثامن عشر، أمريكيين كثيرين بعيدا عن مُثل وأنماط السلوك الباردة التى ميزت «عصر العقل» وجعلتهم يعتنقون الديموقراطية الشعبوية، ومعاداة المثقفين، والفردانية غير المصقولة، تلك التوجهات التى مازالت تميز الثقافة الأمريكية حتى اليوم. نظّم الوعاظ مسيرات على ضوء المشاعل وتجمعات جماهيرية تُردَّدُ فيها الأغانى الشعبية الإنجيلية التى كانت تتسبب فى أن تنتاب الناس حالات من الغشية والنشوة، فكانوا يبكون أثناءها ويطلقون الصيحات، ومثل الحركات الأصولية اليوم، كانت تلك التجمهرات تعمل على منح الناس الذين كانوا يشعرون بالتهميش والاستغلال – وسيلة يُسمِعون بها أصواتهم للمؤسسة.

لم تقتصر الحركة الإنجيلية التبشيرية الإحيائية على المناطق التخومية.. كان مسيحيو المدن المتطورة فى الشمال الشرقى يشعرون بالإحباط من المؤسسة التى كانت تعتنق ألوهية الطبيعة، والتى فشلت ثورتها فشلا ذريعا فى إقامة عالم أفضل. كانت طوائف كثيرة تحرص على خلق «مسافة» تفصلها عن الحكومة الفدرالية. وكانت القصص المخيفة التى سمعوها عن الثورة الفرنسية قد تسببت لهم فى القلق العميق، حيث رأوا أنها تُجسِّد مخاطر العقلانية غير المقيدة. كان قد روّعهم أن نشَر توماس باين، وهو الكاتب الأمريكى، كتابه «عصر العقل» (١٧٩٤) فى ذروة «حكم الرعب» بفرنسا. اعتقدوا أنه لكى يتجنب مجتمعهم الديمقراطى سلطة الرعاع ينبغى على الناس أن يصبحوا أكثر ورعاً وإيماناً. خاطب ليمان بيتشر (١٧٧٥– ١٨٦٣) راعى الكنيسة الإنجيلى بسينسيناتى أتباعه بالإبراشية بقوله «إن أردتم أن تصبحوا أحرارا بحق، عليكم التمسك بالفضيلة، والاعتدال، والمعرفة». أصر تيموثى دوايت رئيس جامعة ييل على أن أمريكا هى إسرائيل الجديدة؛ وأن تخومها الآخذة فى التوسع باستمرار هى دلالة على «الملكوت» القادم، من ثم فلكى يصبح الأمريكيون جديرين بالمهمة التى أوكلها الله إليهم، عليهم بالمزيد من التمسك بالدين. أصبح يُنظر لعقيدة ألوهية الطبيعة الحلولية بصفتها عدوا شيطانياً، مسئولة عن مواطن فشل الأمة الوليدة: «إن تلك العقيدة تبجل الطبيعة تبجيلاً هو من حق المسيح وحده، ويعمل هذا على نشر الإلحاد والمبادئ المادية».

بيد أنهم وعلى الرغم من ارتدادهم العميق الظاهرى عن مُثل التنوير، فإن الإنجيليين تحمسوا لاعتناق لاهوته الطبيعى. ظلوا يستندون بعمق إلى الفلسفة الإسكتلندية التى تقول بالفطنة الفطرية السليمة، وإلى محاجة پايلى

على وجود الله استنادا إلى خطة الكون وتصميمه، ورأوا إله نيوتن ضروريا للمسيحية. اعتقدوا أن القوانين الطبيعية التى اكتشفها العلماء فى الكون أثبتت الوجود الملموس للعناية الإلهية، وأضفت يقينا علميًا لا يتزعزع على عقيدة المسيح. وفى نفس الوقت الذى كان يدعو فيه بيتشر إلى عقيدة دينية مبعثها القلب، فقد أصر على أن المسيحية الإنجيلية هى فى المقام الأول «نظام عقلانى». وعلى نفس الوتيرة، ذهب چيمس مكوش (١٨١١- ١٨٩٤) رئيس جامعة برينستون إلى أن اللاهوت هو «علم» وإلى أن «تفحص مظاهر الطبيعة وأدائها يؤدى إلى اكتشاف طبيعة الله وإرادته». أعلن أن على أى عَالِم لاهوت أن يتبع:

«نفس الأسلوب الذى يتبعه فى جميع فروع الدراسة والبحث الأخرى. يبدأ بالبحث عن الوقائع؛ ثم يرتبها وينسق بينها، ثم، بارتقائه من الظواهر التى تتجلى أمامه إلى أسبابها، يكتشف، من خلال قوانين الاستدلال العادية عِلّة واحدة لجميع العلل الثانوية».

رأوا أن الله يعمل على غرار أية ظاهرة طبيعية فى العالم الحديث. وأن ثمة سبيلاً واحداً للوصول إلى الحقيقة من ثم، فلابد أن يتطابق اللاهوت مع المنهج العلمى.

فى أربعينيات القرن التاسع عشر، أتى تشارلس جرانديسون فينى (١٧٩٢- ١٨٧٥)، وكان شخصية محورية فى الدين الأمريكى، أتى بمسيحية التخوم الديمقراطية إلى الطبقات الوسطى الحضرية. استخدم فينى أساليب قُدامى الأنبياء البدائية وخاطب بها المهنيين ورجال الأعمال حافزا إياهم على أن يخبروا المسيح مباشرة دونما وساطة المؤسسة، وأن يفكروا لأنفسهم، ويتمردوا على رجال الدين الأكاديميين. رأى أن المسيحية دين عقلانى تماما،

وأن إلهها هو خالق الطبيعة وحاكمها وأنه يعمل من خلال قوانين الفيزياء. قال بأن كل حادث طبيعي يكشف عن عناية الله وقدرته وبأن العواطف التي تولدها عمليات الإحياء لم يُلهمها الله مباشرة (كما كان چوناثان إدواردز قد افترض)؛ بل إنها توضح أن الله يعمل من خلال مهارات المبشرين الذين يعرفون كيف يُوظفون الاستجابات النفسية الطبيعية.

أتى الإنجيليون التبشيريون باللاهوت الطبيعي، الذي كان قد ظل مَسْعىً للأقليات، إلى التيار الرئيسي. وعلى الرغم من أنهم مضوا يصرون على تسامي الله، إلا أنهم اعتقدوا أن بالإمكان معرفته باستخدام العلم لأن معرفته تتطلب حكمة وفطنة، على الرغم مما في هذا من تناقض. ولأنهم كانوا يحترزون من المتخصصين المتعلمين، فقد أرادوا ديناً واضحاً خاليا من الغموض الناتج عن جموع خيال اللاهوتيين. قرأوا الإنجيل بِحرْفية غير مسبوقة، لأن هذا بدا لهم أسلوبا أكثر عقلانية من التفسيرات الأليجورية والرمزية القديمة. اعتقدوا أن لغة الدين، تماما كالخطاب العلمي، يجب أن تكون أحادية المعنى، واضحة وشفافة. أتى الإنجيليون بمفهوم «الاعتقاد» الذي تبنته حركة التنوير بصفته قناعة عقلية، أتوا به ليصبح مركزيا في التدين البروتستانتي، كما أبقوا على فصل التنويريين بين الطبيعي وما فوق الطبيعي. وأخيرا، وفي محاولة منهم لغرس عقيدتهم في أسس ملموسة، اتبعوا نهج الفلاسفة في جعلهم السلوك الأخلاقي ذا مركزية دينية. أرادوا إلهاً مُعقلناً يشاركهم معاييرهم الأخلاقية الخاصة، ويسلك مسالك الشخص الإنجيلي الصالح. في الماضي، كان السلوك الأخلاقي التراحمي يقود الناس إلى البعد المتسامي للحقيقة ويُعرِّفهم بالله؛ أما الآن فكانوا يعلنون أن الله «صالح» تماما كأي شخص «إنجيلي» ملتزم. ومن الشائق أنهم رأوه يشاركهم

الحماس للفضائل التى تَضْمن النجاح المالى فى السوق: الحِرْص فى الإنفاق، الرزانة، التحكم فى النفس وضبطها، الاجتهاد واليقظة، الاعتدال. ومن الواضح أن هذا الإله كان فى طريقه لأن يصبح صنما.

وعلى الرغم من أن هذا الدين الأمريكى برهن على أنه قوة تحديثية، لكنه فيما كان يدعم المعتقدات وأنماط السلوك الرأسمالية كان أيضا يجهر بنقد صحى للنظام. فى أثناء عشرينيات القرن التاسع عشر، خاض الإنجيليون حروبا صليبية أخلاقية للإسراع بمقدم ملكوت الله، وقادوا حملات ضد الرق، والفقر الحضرى، والاستغلال، والخمور، وقاتلوا من أجل إصلاح قانون العقوبات، وتعليم الفقراء وتحرير المرأة. أكدوا على قيمة الفرد، والمساواة، ومُثُلِ حقوق الإنسان الثابتة. كانت المجموعات الإصلاحية المسيحية بين أوائل المجموعات التى وجهت طاقة الرأسمالية، ومهاراتها البيروقراطية باتجاه المشاريع غير الربحية، بحيث علّموا الناس أن يخططوا لأهداف محددة واضحة، وينظموها، ويسعوا إلى تحقيقها. كان ثمة قناعة شائعة بأن التقدم التكنولوجى فى النقل والآلات، ومجالات الصحة العامة، والإضاءة بالغاز، والاتصالات تمنح الأمريكيين تحكما فى بيئتهم سيؤدى أيضا إلى التحسن فى مجال السلوك الأخلاقى.

وبمنتصف القرن التاسع عشر، كان الأمريكيون فى غالبيتهم، وربما بسبب مبادرات الإنجيليين، أكثر تديّنا مما كانوه من قبل على مدى العصور. عام ١٧٨٠ كان ثمة ٢٥٠٠ إبراشية بالولايات المتحدة؛ أصبحت حوالى ١١٠٠٠ إبراشية عام ١٨٢٠ ثم وصل عددها إلى ٥٢٠٠٠ عام ١٨٦٠- أى بزيادة واحد وعشرين ضعفا. وبالمقارنة، ارتفع عدد سكان الولايات المتحدة من ٤ ملايين نسمة إلى ١٠ ملايين عام ١٨٢٠، و٣١ مليونا عام ١٨٦٠- أى أقل من

ثمانية أضعاف. مكّنت البروتستانتية الشعب فى أمريكا من مواجهة المؤسسة، وهذا توجه مازال مستمرا، بحيث غدا من الصعب اليوم وجود حركة شعبية فى الولايات المتحدة غير مرتبطة بالدين بأسلوب ما. وبخمسينيات القرن التاسع عشر، كانت المسيحية فى أمريكا قد أخذت ما تريده من حركة التنوير الأوروبية، وبدت، وكلها ثقة فى اليقين الذى استمدته من العلم، متناغمة تماما مع العالم الحديث.

وبالتقابل، بدأ نمط من الإلحاد يظهر فى أوروبا مختلف عن «علموية» ديدرو ودهولباخ. كان الأمريكيون يحذرون المذهب العقلى intellectual-ism، كما أن الثورة الفرنسية روّعتهم، فلجأوا إلى المسيحية لتعزيز الإصلاح الاجتماعى. لكن الثورة الفرنسية ألهمت الألمان، حيث رأوا أنها قد ترجمت مُثل التنوير الفكرية إلى برنامج للعدالة والمساواة. استبعد الوضع الاجتماعى والسياسى فى ألمانيا النشاط الثورى، وبدا من الأفضل، بعد التجربة الفرنسية، أن يحاولوا تغيير الأسلوب الذى يفكر به الناس بدلا من اللجوء إلى العنف والرعب، وهكذا، ظهرت بالجامعات الألمانية فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كوادر حركة فكرية مناهضة للمؤسسة.

كان معظم المثقفين الثوريين على إلمام جيد بعلم اللاهوت الذى كان فى ألمانيا مبحثا تقدميا رفيع المستوى: كان كل اثنين من بين خمسة خريجين حائزين على درجة فى اللاهوت، وكانوا يدركون أنهم طلائع التغيير الدينى. فى نهاية القرن الثامن عشر، كان أكاديميون ألمان مثل يوهان إيكهورن (١٧٥٢– ١٨٢٦)، ويوهان فيتر (١٧٧١– ١٨٢٦) وويلهلم دوقيت (١٧٨٠– ١٨٤٩) فى طليعة من استخدم نهجا جديدا لقراءة الإنجيل، وطبقوا على الإنجيل المنهج التاريخى/ النقدى الذى يُستخدم فى دراسة النصوص

الكلاسيكية. اكتشفوا، نتيجة لهذا، أن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (أسفار موسى) لم يكتبها موسى بل ألفها خمسة أشخاص على الأقل، ومن ثم تغيرت نظرتهم إلى التنزيل والحقيقة الدينية تماما. أصبح بعض الشبان الآخرين أتباعا لشلايماخر وهيجل وتحمسوا للإسراع بعملية التقدم الجدلى التى كان هيجل قد وصفها للقضاء على الأيديولوجيات والمؤسسات الرجعية. ساءتهم بخاصة مميزات رجال الدين الاجتماعية واعتبروا الكنيسة اللوثرية معقلا للتوجهات المحافظة.

كان الإلحاد الأوربى من ثمار هذا التعطش للتغيير الجذرى الاجتماعى والسياسى. كان على الكنائس، بصفتها جزءا من النظام القديم الفاسد، أن تختفى ومعها الإله الذى دعم النظام. وفيما تكثفت مسيرة التحديث، أدت سرعة التصنيع ونمو عدد السكان فى أربعينيات القرن التاسع عشر إلى حرمانٍ اجتماعى حاد وتم قمع التظاهرات وأعمال الشغب من أجل الطعام بوحشية. وفى هذه الأجواء نشر لودفيج فويرباخ (١٨٠٤- ١٨٧٢) تلميذ شلايماخر وهيجل كتابه «جوهر المسيحية» (١٨٤١) الذى قرأه الناس بشراهة ليس فقط كنص لاهوتى؛ بل أيضا كنص ثورى. أوصل فويرباخ دعوة هيجل لوجود إله ودينٍ ينتميان إلى هذا العالم إلى نهايتها المنطقية: إذا كانت فكرة الإله القصى الخارجى تعمل على كل هذا الاغتراب، لِمَ إذن، لا نتخلص منه تماما؟ رأى فويرباخ أن الله هو مجرد تركيب عقلى بشرى قامع. أسقط البشر صفاتهم البشرية على كائن متخيل هو مجرد انعكاس لأنفسهم. قال، «إن اعتقاد الإنسان فى الله لا يعدو كونه اعتقادا فى نفسه.. فهو لا يُبجل ولا يحب فى إلهه سوى كيانه ذاته». رأى أن هيجل كان على صواب حيث إن الله ليس كيانا موجودا خارج البشرية، فما يُنسب إليه من حب، وسطوة، وخير، هى

كلها صفات بشرية يجب أن تُبجل من أجل ذاتها. قال إن فكرة الإله حرمت المسيحيين من الثقة بالنفس وشجعتهم على الاعتقاد بأنه «فى مواجهة الله، فإن العالم والبشر هم لا شيء». لابد أن يدرك الناس أنهم وحدهم هم «الآلهة» الموجودة، وأن يفهموا أن أية مرجعية متجذرة فى فكرة الله لا تعدو كونها تعبيرا عن المصلحة الذاتية الفجة الصارخة.

كان إعلان الجمهورية الثانية بفرنسا عام ١٨٤٨ قد أدى إلى انتشار الآمال بإمكان تحقق شيء مماثل فى ألمانيا، وظهرت دعوات للحكم الدستورى. وعلى أمل منه أن تمتد تلك الاضطرابات إلى بقية أوروبا، قام كارل ماركس (١٨١٨- ١٨٨٣) بنشر مانيفستو الشيوعية، بيد أنه اتضح بعد عام أن الحركة الثورية قد فشلت . أخذ ماركس عدم وجود الله كأمر بدهى ولم يهتم بتقديم مبررات فلسفية لإلحاده، كان هدفه الوحيد هو العمل على التخفيف من بؤس البشر. وُلِد ماركس لأسرة يهودية من الطبقة المتوسطة بترير، ودرس فى برلين مع هيجل حيث التقى عددا من اللاهوتيين الأكثر إثارة للجدل فى عصرهم. وحينما فشل فى الحصول على منصب أكاديمى بألمانيا عمل بالصحافة فى باريس حتى تم طرده لأنشطته السياسية فاستقر فى لندن، حيث بدأ عمله على كتابه التحليلى الخالد «رأس المال».

ورغم أن ماركس اعترف بأن تحليل فويرباخ كان سديداً إلا أنه رآه غير كافٍ، إذ اعتبر أن زمن التنظير قد ولّى. أصر بتأكيد كبير على أن «الفلاسفة قد فسروا العالم فقط، لكن المهم هو تغييره». رأى أنه بدلا من تأمل فكر هيجل الجدلى ودراسته، لابد للثورى الملتزم أن يجعله يحدث على أرض الواقع؛ عليه أن يأتى بتناقضات أسس المجتمع الرأسمالى إلى العلن وبذا يسارع من ظهور القوى التى تُبطِل مفعول ذلك المجتمع وتمثل نقيضا له. كان يعتبر أنه

من البدهى أن الله هو مجرد إسقاط لاحتياجات البشر، لكن تلك الاحتياجات أوجدتها العوامل المادية والاجتماعية التى تحدد الأسلوب الذى يفكر به الناس ويعيشون. أدى ظلم الرأسمالية إلى إنتاج إله هو مجرد وهم يلطف من معاناة البشر:

«إن الأسى الدينى هو تعبير عن الأسى الواقعى واحتجاج عليه فى آن. إن الدين هو تنهيدة المخلوق المقموع، وقلب العالم الذى لا قلب له، مثلما هو روح وضعٍ لا روح له. إنه أفيون الشعوب».

حينما يصبح الناس غير خاضعين لنظام قامع يجعل منهم «مادة كيانات ممتهنة مستعبدة منبوذة محتقرة» ستضمحل فكرة الإله حتى تختفى. فالإلحاد ليس نظرية مجردة بل هو مشروع جوهرى لرفاه البشرية: «القضاء على الدين بصفته سعادة وهمية للشعوب أمر تقتضيه سعادتهم الحقيقية».

كان آخرون قد بدأوا يرون أن العلم، الذى كان قد ظل طويلا خادما مطيعا للدين، هو الذى سيقضى عليه. فى كتابه عن «الفلسفة الوضعية» المؤلَّف من ستة أجزاء (١٨٣٠- ١٨٤٢)، قدم الفيلسوف الفرنسى أوجست كونت (١٧٩٨- ١٨٥٧) التاريخ الفكرى للبشرية فى ثلاث مراحل. كان الناس، فى المرحلة البدائية الدينية، قد رأوا الآلهة بصفتها الأسباب النهائية للأحداث؛ ثم بعد ذلك، حوّلوا تلك المخلوقات فوق الطبيعية إلى تجريدات ميتافيزيقية، وفى المرحلة الأخيرة «الوضعية» الأكثر تقدما أو المرحلة العلمية، لم يعد العقل يشغل نفسه بجوهر الأشياء وماهياتها الباطنية التى لا يمكن اختبارها تجريبيا، لكنه يركز فقط على الوقائع. وعلى هذا، رأى كونت أن الثقافة الغربية كانت على وشك ولوج تلك المرحلة الوضعية الثالثة، وليس ثمة عودة عن ذلك. بغير استطاعتنا النكوص إلى مصادر السلوى اللاهوتية أو الميتافيزيقية التى

كانت موجودة فى الماضى، بل إن قوانين التاريخ الحتمية الثابتة تدفعنا إلى التحرك قدما إلى عصر العلم.

كان العلم يكتسب مزيدا من الصرامة، وفى تلك الأثناء كان قد بدأ يقلقل المعتقدات اليقينية الشعبية. فى عام ١٨٣٠ نشر تشارلس ليل (١٧٩٧- ١٨٧٥) الجزء الأول من كتابه «مبادئ الجيولوجيا» الذى قال فيه إن القشرة الأرضية أقدم كثيراً من الستة آلاف عام التى يتحدث عنها الإنجيل؛ وعلاوة على ذلك ذهب إلى أن الله لم يشكلها مباشرة، لكنها تشكلت من خلال تأثيرات بطيئة تراكمية للرياح والمياه. رفض ليل، الذى كان مسيحيا ليبرالى الفكر، أن يناقش التضمينات الدينية لاستنتاجاته وذلك لأنه كان يرى أن العلم «يجب أن يمارس وكأنما النصوص المقدسة غير موجودة كان يضجر جدا من العمل غير المهنى لبعض زملائه الذين كانوا يولون «أهمية متسامية لكل تناقض أو تطابق بين ظواهر الطبيعة وبين تأويلات النص العبرانى المتفق عليها بعامة». وهكذا، عبّر ليل عن نسخته الخاصة من التمييز القديم بين التفكير الأسطورى والعقلانى رأى أن العلم واللاهوت مبحثان مختلفان وأن الخلط بينهما يمثل خطورة.

لم يعد العلماء يعتبرون مبحثهم فرعا من «الفلسفة» التى دائماً ما اهتمت بالميتافيزيقا، ولم يعودوا أيضا ينظرون إلى أنفسهم كباحثين جنتلمن Gen-tlemen، بل على أنهم مهنيون محترفون. وبمنتصف القرن التاسع عشر، كان الفيزيائيون، وأيضا علماء الچيولوچيا، والنبات والأحياء يصيغون استبصاراتهم بلغة الرياضيات الدقيقة. وكجزء من روحهم الجماعية المهنية الجديدة، بدأوا يصُرون على التقييم «الوضعى» للحقيقة، تقييم يُقصى أى شىء غير قابل للقياس. عرَّف آدم سرجويك (١٧٨٥- ١٨٨٣) عالم الچيولوچيا

بكامبريدج، العلم بأنه «دراسة كل المواضيع، سواء ذات الطبيعة الخالصة أو المزوجة المختلفة، التى يمكن إخضاعها للقياس والحسابات».

ومن الواضح أن الله لم يكن ضمن تلك الموضوعات. غدا العلماء، وبسبب التقدم المذهل فى التكنولوجيا، يعاملَون بتقدير كبير لم يسبق له مثيل. بدا العلم وأنه يجسد التقدم. كان واضحا، دقيقا، محددا، يراكم الحقائق بأسلوب منهجي هادف، ويثبت صحة نظرياته، ويصوب أخطاءه السابقة، ويخطو إلى المستقبل دونما وجل. غدا الناس الذين يعملون في المباحث الأخرى، وقد أعُجبوا بصرامته ورغبوا فى المشاركة فى مكانة العلماء، يتأثرون بتزايد بمعاييره الوضعية لقياس الحقيقة.

كانت لكشوفات ليل أثر الصدمة المفيدة على كثير من المؤمنين، الذين اعتادوا الاعتقاد بأن العلم كان إلى جانبهم. فى أمريكا، وبعد فترة وجيزة من الذعر العميق، بدأ رجال الكنيسة الإنجيليون يتراجعون عن الحرفية الصارمة فى قراءتهم للإنجيل. لكنهم مضوا فى استنادهم على المحاجات القائمة على أساس خطة الكون. وكان بعضهم على دراية بالقرائن الحديثة المقلقة على أن الحياة ذاتها – وليس فقط قشرة الأرض – قد تطورت من أشكال «دُنيا» إلى أشكال «عليا». أوضح سجل الحفريات أن أنواعا لا حصر لها عجزت عن البقاء؛ وبدلا من الخطة المحكمة، كان علماء الچيولوچيا يكشفون النقاب عن تاريخ طبيعى كله ألَم ومعاناة وموت وفناء عرقى ونوعى. فى عام ١٨٤٢، نشر روبرت تشامبرز (١٨٠٢– ١٨٧١)، كتاب «آثار التاريخ الطبيعى للخليقة» الذى ذهب فيه إلى أن العلماء سرعان ما سيثبتون وجود تفسير طبيعى محض لتطور الحياة. حاول آخرون «تعميد» تلك الاكتشافات الجديدة وتنصيرها. رأى لوى أجاسيز (١٨٠٧– ١٨٧٣) أستاذ هارڤارد السويسرى الأمريكى، أن ذلك

الصراع (من أجل البقاء) هو جزء من خطة الله العظمى؛ وأن الله، ببساطة، كان يُعدُّ الأرض لسكانها البشر. اعتقد أجاسيز فى وجود قرائن على التخطيط الإلهى فى اتساق (سيمترية) الطبيعة، حيث تتكرر النماذج والقوالب فى كل كائن من الفقريات باتساق تام، ولا يمكن أن يكون هذا قد حدث مصادفة: «لابد من النظر إلى الرابطة الذكية التى يمكن فهمها بين حقائق الطبيعة بصفتها برهانا مباشرا على وجود إله مفكر».

لكن بذرة الشك كانت قد غُرِست. عبّر الشاعر الإنجليزى ألفرد تنيسون (١٨٠٩– ١٨٩٢) تعبيرا مؤثراً عن القلق الدفين الذى كان يعمل على تآكل إيمان معاصريه. أوضح النجاح الفورى الشعبى لقصيدة In Memoriam (١٨٥٠) التى كتبها فى رثاء صديقه أنه قد عبر عن مخاوف الكثيرين غير المنطوق بها. لمدة مائتى عام، كان المسيحيون الغربيون يُشجَّعُون على الاعتقاد بأن الدراسات العلمية للعالم الطبيعى تصادِق على عقيدتهم. لكنه، وعلى ما يبدو، فقد ظهر أنه لو أن هناك خطة إلهية فهى قاسية، سفيهة بلا مشاعر، ومبدِّدة. صاغ تنيسون هذه الرؤية فى تعبيره الخالد بوصفه الطبيعة بأنها مُضرَّجة الأنياب والمخالب. ولأن الدليل العلمى الذى تعلم الناس أن يعتمدوا عليه قد أصبح محل تساؤلات جذرية، فليس بإمكاننا سوى أن نرجو بوهن تحقق أمل أكبر فى: أنه حينما يكمل الله مراكمة المخلوقات التى أرادها، ألا يسير شىء بأقدام لا هدف لها، وألا تُدمَّر حياة واحدة، أو يلقى بها نفاية فى الخواء. لكنه، هكذا يقول فإن «الرجاء» يبدو مبهما لا فحوى له مقابل معرفة العلم اليقينية المحددة. وبما أن الحقيقة الدينية غير قابلة للبرهان العلمى، فقد بدت «غير ذات جدوى» و«واهية» وهكذا، يصيح الشاعر: انظر، نحن لا نعرف أى شىء/ لا أستطيع سوى أن أرجو أن يأتى الخير فى النهاية البعيدة جداً

- خير يأتى الجميع فى النهاية/ وأن كل شتاء سيتغير إلى ربيع. لكنه فى حلمه يصيح: لكن ما أنا؟/ وليد يبكى فى الليل/ وليد يبكى طلبا للضوء/ لا لغة له سوى البكاء.

كان الڤيكتوريون قد تعلموا أن ينظروا لأنفسهم على أنهم مُحصنون ضد الغلبة والقهر؛ فقد اعتقدوا أن العلم سيقودهم إلى عالم من التقدم الروحى والأخلاقى. لكن بدا وأن البشرية بعد أن جُرِّدت من الإيمان الذى جعل تحمل محن الحياة ممكنا، وبدلا من أن تصل إلى سن الرشد، فمازالت مبتلاة بالرعب والتشوش اللذين عانت منهما فى طفولتها.

ثابر بعض رجال الدين فى محاولاتهم مجابهة إقرار اللاهوت الطبيعى القائم على أسس علمية. تمت إدانة هواريس بوشنل (١٨٠٢- ١٨٧٦) راعى الكنيسة المستقلة بهارتفورد، كونكتيكات، بصفته منشقا على العقيدة: فقد بيَّن أن ثمة ما هو مشترك بين اللاهوت والشعر بأكثر ما بينه وبين العلم. قال إن لغة الدين لابد أن تكون غامضة، غير محددة، لأن ما نسميه «الله» ليس فى متناول التفكير العقلانى. رأى أن الإفادات عن الله «دائماً ما تجزم بشىء زائف، أو مناقض للحقيقة المعنية» لأنها «تنسب هيئة إلى ما لا هيئة له فى واقع الأمر». أضاف أن «أشكال الدوغما الثابتة» دائماً ما تشوه الحقيقة، لأن مثل «تلك التعريفات هى مجرد تغيِّرات للرمز، وإذا رأينا فيها أكثر من ذلك، فمن المحتم أن تقودنا إلى الخطأ». وهكذا، غدت الملاحظات والتعليقات التى كانت فى وقت من الأوقات تعتبر عادية تُقابل بالغضب العارم. كان المسيحيون الغربيون قد أدمنوا البراهين العلمية وغدوا على قناعة بأن الله إن لم يكن حقيقة يمكن إثباتها تجريبيا، فلا يمكن للدين أن يكون حقيقيا.

فى ٢٧ ديسمبر ١٨٣١، اضطلع عالم الطبيعة تشارلس داروين برحلة

لخمس سنوات على متن السفينة بيجل لعمل مسح علمي للمياه جنوب الأمريكية وذلك لدراسة الحياة الحيوانية والنباتية والخصائص الجيولوجية لجزيرة تنريف، وجزر كيب دوفيرد، وبيونس أيرس، وڤالپا ريسو، وجالا پاجوس، وتاهيتى، ونيوزيلاندا ، وتسمانيا، وأخيرا جزر (أرخبيل) كوكوس. أجبرته القرائن التى جمعها على إنكار محاجة پايلى عن الخطة الإلهية بل اعتقد أن الله لم يخلق العالم على الصورة التى نعرفها اليوم. بدلا من ذلك، فقد بدا من الواضح أن الأنواع قد تطورت ببطء على مر الزمان فيما كانت تتكيف مع بيئتها. وفى أثناء مسيرة الانتقاء الطبيعى تلك هلكت أنواع لا حصر لها من الكائنات وفنيت عن آخرها. فى نوفمبر ١٨٥٩، نشر داروين كتابه «أصل الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعى». ثم بعد ذلك طرح فى كتابه «أصل الإنسان The Descent af Man» (١٨٧١) اقتراحا أكثر إثارة للجدل يقول إن الإنسان تطور من سلالة القردة العليا، الغوريللا والشمبانزى، أى أن البشر ليسوا ذروة عملية خلق هادفة؛ بل إنهم مثل أى شىء آخر تطوروا، من خلال المحاولة والخطأ، وأنه ليس لله دور مباشر فى صنعهم.

حطم افتراض التطور كثيراً من المدركات المسبقة الجوهرية بدرجة أنه، فى البداية، لم يستطع سوى البعض استيعابه كاملا؛ بل إن ألفرد راسل دالاس (١٨٢٣– ١٩١٣) نفسه صاحب الإسهام الكبير فى أعمال داروين، لم يستطع قبول عدم وجود «ذكاء» أعلى متحكم. استخدم عالم النباتات الأمريكى إيسا جراى (١٨١٠– ١٨٨٨)، وكان ذا قناعة راسخة بالنظرية التطورية ومسيحيا ملتزما فى أن، استخدم الفرضية التطورية فى دراسته للنباتات لكنه لم يستطع القبول بفرضية غياب خطة إلهية مهيمنة. لم تعمل نظرية داروين فقط على تقويض اللاهوت المؤسس على الخطة الذى كان قد أصبح الدعامة

الأساسية للعقيدة المسيحية الغربية، بل إنها أيضا أنكرت المبادئ الأساسية لحركة التنوير.

بيد أن داروين لم يرغب فى تدمير الدين. على مدى السنين، ظل إيمانه فى حالة تذبذب، وبخاصة بعد موت ابنته آنى المأسوى، لكن، لم تكن مشكلته الرئيسية مع المسيحية هى الانتقاء الطبيعى، بل مبدأ الخطيئة المميتة الأزلية – كرد فعل على وعظات عذاب الجحيم. أخبر إيسا جراى أنه كان من المستغرب أن يشك الناس فى أن «الرجل قد يكون عميق الإيمان بالله، وبنظرية التطور أيضا» وأضاف قائلاً: «إننى لم أكن ملحدا أبدا بمعنى إنكار وجود الله. أعتقد بعامة، لكن ليس دائماً، أن اللاأدرية هى الوصف الأكثر صوابا لحالتى العقلية، وبخاصة مع تقدمى فى العمر». بيد أنه، وكنتيجة لأبحاثه، لم يعد الله هو التفسير العلمى الوحيد للكون. فلم يقتصر الأمر على عدم وجود برهان على وجود الله؛ بل إن نظرية الانتقاء الطبيعى أوضحت استحالة وجود مثل هذا البرهان. وإذا أراد المسيحيون الاعتقاد أن الله، يشرف بأسلوب ما، على العملية التطورية – وكان الكثيرون يعتقدون ذلك – فإن ذلك سيكون شأن اختيار شخصى. سارعت اكتشافات داروين من خُطى النزوع المتنامى لإقصاء الدين عن النقاش العلمى. ووفقا لما قاله الفيزيقى الأمريكى چوزيف هنرى (١٧٩٧– ١٨٧٨) تتطلب الحقيقة العلمية براهين فيزيقية قاطعة؛ لابد لها من أن تمكننا من أن «نفسر ظواهر الطبيعة ونتنبأ بها، بل وأحيانا من أن نتحكم فيها». غدا العلم الآن، وقد أصبح يستند بالكامل إلى الوقائع الملموسة القابلة للقياس، يرفض أية فرضية غير مؤسسة على خبرة البشر بالعالم الطبيعى، ومن ثم، لا يمكن اختبارها.

كان تشارلس هودج أستاذ اللاهوت بجامعة برينستون من أوائل من

استوعبوا تأثير هذا على اللاهوت الطبيعى، ومن ثم، كتب أول هجوم دينى معزز بالأدلة على الداروينية فى عام ١٨٧٤. بيّن أن العلماء، قد استغرقوا فى دراسة الطبيعة بدرجة لم يعودوا يؤمنون معها سوى بالأسباب الطبيعية ولم يقدّروا أن الحقيقة الدينية تقوم أيضا على وقائع ولابد من احترامها بصفتها هذه. كان بإمكان هودچ استبصار ما سيحدث للعقيدة المسيحية بمجرد أن يتوقف العلماء عن الإقرار بالله بصفته التفسير النهائى للظواهر الطبيعية. كان مصيبا حينما أعلن أن على الدين، كما يعرفه «أن يقاتل دفاعا عن حياته ضد فئة كبيرة من الرجال العلميين». رأى أن هذا الحال لم تكن لتقوم له قائمة لو أن المسيحيين لم يسمحوا لأنفسهم بكل هذا الاعتماد على المنهج العلمى الغريب تماما عن المسيحية. أقام هودچ شخصيا، جدله ضد داروين على أسس علمية مفترضة. كان مازال ينظر إلى العلم – ونظرا لأنه ظل مثبّتا عند النموذج المبكر للدراسات العلمية – على أنه تجميع منهجى للوقائع، ولم يفهم قيمة التفكير الافتراضى. من ثم، انتهى إلى أن نظرية داروين غير علمية لأنه لم يثبتها. رأى هودج أنه من المستحيل على أى عقل عادى أن يعتقد أن بنية العين المعقدة، على سبيل المثال، ليست نتيجة خطة وتصميم.

لكن هودج كان صوتا وحيدا فى معارضته لداروين. ونظرا لأن غالبية المسيحيين كانوا غير مستطيعين تقدير التضمينات الكاملة لفرضية الانتقاء الطبيعى، ظلوا على استعداد للتكيف مع نظرية التطور. لم يكن داروين قد غدا بعد ذاك البُعبع الذى سيصبحه فيما بعد. فقد كان المسيحيون المحافظون، فى نهاية القرن التاسع عشر، يعتريهم بالغ القلق جراء قضية مختلفة تماما.

فى عام ١٨٦٠، العام التالى لنشر «أصل الأنواع» نشر سبعة من رجال

الدين الأنجليكانيين كتاب «مقالات ومراجعات»، وكان عبارة عن مجموعة من المقالات جعلت النقد الأعلى الألماني للإنجيل متاحا للجمهور العام الذى كان قد ظل خالى الذهن، والذى علم الآن، وقد ألجمته الدهشة، أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، وأن داود لم يكتب المزامير، وأن المعجزات الإنجيلية لا تتعدى كونها استخدامات مجازية أدبية. آنذاك، كان رجال الدين الألمان أرفع تعليما وثقافة بكثير من نظرائهم ببريطانيا وأمريكا الذين لم يكونوا مؤهلين لمتابعة الأبحاث الأكاديمية الألمانية، أو لشرحها لأتباعهم. وبمطلع خمسينيات القرن التاسع عشر، كان المنشقون عن الكنيسة الأنجليكانية البريطانية والذين كانوا من غير المسموح لهم الدراسة بأكسفورد أو كامبريدج قد بدأوا فى الدراسة بالجامعات الألمانية، ولدى عودتهم إلى وطنهم، أتوا معهم بالنقد الإنجيلى الأعلى الألمانى. آنذاك، كانت الصدامات قد بدأت بالفعل بين الباحثين «المتألمنين» وزملائهم بالكليات والمعاهد اللاهوتية.

أحدث «مقالات ومراجعات» إثارة كبرى، بيع من الكتاب ٢٢ ألف نسخة فى عامين (أكثر من كتاب أصل الأنواع طوال الأعوام الواحد وعشرين الأولى بعد نشره)، وصدرت منه ثلاث عشرة طبعة فى خمس سنوات، واستحث حوالى أربعمائة كتاب ومقالة فى استجابة له. كان ثلاثة من الكتاب الذين ساهموا فى المجموعة ينتمون إلى دائرة رجال دين تقدميين بأكسفورد وكامبريدج، والذين كانوا يبقون بعضهم مطلعين على أحدث التطورات فى مجالهم. كان هؤلاء هم: بادن پاول، أستاذ الهندسة بأكسفورد، وبنچامين چويت (١٨١٧- ١٨٩٣) أستاذ الكلاسيكيات وفيما بعد رئيس كلية باليلول؛ ومارك پاتيسون رئيس كلية لينكولن. كانت المقالات متنوعة: ناقشت الطبيعة التنبوئية للنبوءات، تأويل قصص المعجزات، وتأليف سفر التكوين. لكن المقال

الأهم بإطلاقه كان ذلك الذى كتبه چويت: «عن تأويل الكتاب المقدس»، والذى رأى فيه وجوب إخضاع الإنجيل لنفس الدراسة الصارمة التى يخضع لها أى نص قديم. وجد البروتستانت الإنجيليون الذين كانوا قد تعلموا النظر فقط إلى المعنى الواضح للنصوص المقدسة، وفقدوا بذلك أى فهم لطبيعة الكتابة الأسطورية، وجدوا تلك الأفكار باعثة على عميق القلق. فى عام ١٨٨٨، نشرت مسز مرفى وارد، الروائية الإنجليزية رواية «روبرت إلسمير» التى روت فيها قصة رجل دين أفقده النقد الأعلى إيمانه. تشكو زوجته عند نقطة معينة قائلة: «إذا كان الكتاب المقدس غير صحيح بالفعل، كتاريخ، فلا أعلم كيف يكون صحيحا بإطلاقه، أو ما قيمته». حققت الرواية أفضل المبيعات فى دلالة على أن المشكلة كانت تشغل قراءً كثيرين.

شعرت هيئة الكهنوت بالقلق أيضا من تلك النظريات الجديدة. بعد نشر كتاب «مقالات ومراجعات» مباشرة، هدّد خطاب نشرته التايمز، ونُسِب إلى أسقف كانتربرى وخمسة وعشرين أسقفا آخرين – بمحاكمة الكتّاب أمام المحاكم الكنسية. وفعلا، تمت محاكمة اثنين منهم بتهمة الهرطقة، وأُدينا (على الرغم من أنه تم إلغاء الحكم فيما بعد) وفقدا وظيفتيهما، ثم تم توقيف چويت لفترة عن ممارسة مهامه الإكليريكية. تعاون الأساقفة، وعلماء اللاهوت، وأساتذة الجامعات لعقد ندوات كبيرة لمجابهة «مقالات ومراجعات» ولحق بالإنجيليين، على خلاف المتوقع، الأنجلو كاثوليك فى بيان جزم بأن الإنجيل مُنزَّل. أيضا، وقع سبعمائة عالم (من مكانة أدنى) احتجاجا شديد اللهجة يدينون فيه الكتاب، وأنشأ بعض الموقعين «معهد ڤيكتوريا» الذى كانت مهمته الدفاع عن الحقيقة الحرفية للإنجيل.

غالبا ما وجد علماء اللاهوت التقدميون ممن تبنوا المنهج التاريخى الجديد

أن أقوى داعميهم كانوا هم العلماء، المطلعين، مثلهم، على أحدث الدراسات والأبحاث في مجالهم. مثلا، حينما تم نفى چون ويليام كولنزو (١٨١٤-١٨٨٣) المبشر وأسقف إقليم ناتال، من طائفته بناء على دراسته النقدية للخمسة أسفار الأولى من التوراة، قدمه ليل لناديه وأعطاه مساعدة مالية ونمت بين الاثنين صداقة وثيقة. حينما كتب المقدس فردريك ويليام فارار (١٨٣١- ١٩٠٣) مقالا عن طوفان نوح، ورأى فيه بناء على الأدلة التى قدمها النقد الأعلى، وعلم الچيولوجيا، أن الطوفان لم يغط الأرض كلها، رفض محررو «معجم الإنجيل» مقاله. لكن داروين دعم ترشح فارار لعضوية الجمعية الملكية البريطانية، وكان فارار أحد حملة نعش داروين، وألقى كلمة تأبين مؤثرة على قبره.

فى الولايات المتحدة، كان المسيحيون الأكثر ليبرالية منفتحين على النقد الأعلى. اعتقد هنرى وارد بيتشر (١٨١٣- ١٨٨٧) أن المبدأ والعقيدة ينبغى أن يحتلا المكانة الثانية مقارنة بالعمل الصالح والإحسان، وذهب إلى أن عقاب أى أحد لاعتقاده فى آراء لاهوتية مختلفة عمل مضاد للمسيحية. كان الليبراليون أيضا على استعداد لـ «تنصير» الداروينية، وذهبوا إلى أن الانتقاء الطبيعى كان من عمل الله وأن البشرية تتطور تدريجيا باتجاه كمال روحانى أعظم وأنه سرعان ما سيجد الرجال والنساء أنه ليس ثمة فجوة تفصلهم عن الله وسيكون باستطاعتهم العيش فى سلام مع بعضهم. لكن كان ثمة هوة تتسع، وتفصل الليبراليين عن المحافظين. أصر تشارلس هودچ، فى معارضته للنقد الأعلى، على أن كل كلمة فى الإنجيل هى وحى إلهى وصحيحة بما لا يقبل مجالا للشك. كتب ابنه أرشيبالد مع زميله الأصغر سنا بنچامين ورفيلد دفاعا كلاسيكيا عن الحقيقة الحرفية للإنجيل. رأيا أن جميع قصص الإنجيل

ونصوصه «معصومة من الخطأ تماما، وأننا ملزمون بالإيمان بها وإطاعتها وأن كل ما فى الإنجيل حقائق ووقائع لا تقبل الجدل.

فى عام ١٨٨٦، أنشأ المبشر الإحيائى دوايت ليمان مودى (١٨٣٧–١٨٩٩) «معهد مودى للإنجيل». لمجابهة النقد الأعلى، وكان هدفه خلق كوادر يعارضون الأفكار الزائفة التى رأى أنها ستدمر الأمة. تم إنشاء كليات مماثلة بواسطة ويليام بى. رايلى فى مينيابوليس عام ١٩٠٢، وأنشأ قطب النفط ليمان ستوارث كلية أخرى بلوس أنجيليس عام ١٩٠٧. رأى البعض النقد الأعلى رمزا لكل ما هو خطأ فى العالم الحديث. ذهب رجل الدين الميثودى ألكساندر ماكاليستر إلى القول بـ«أننا إذا لم نملك معيارا معصوما من الخطأ فمن الأفضل ألا يكون لدينا أى معيار بإطلاقه»؛ وإنه بمجرد أن تصبح حقيقة الإنجيل موضع الشك ستختفى كل القيم المحترمة. أما الواعظ الميثودى لياندر دبليو ميتشل، فقد رأى أن النقد الأعلى هو المسئول عن السُكر والخيانة الزوجية المنتشرة الآن بالولايات المتحدة، فيما اعتقد رجل الدين المشيخانى إم. بى. لامبدين أنه سبب معدلات الطلاق المرتفعة، والابتزاز، والفساد، والجريمة والقتل. كان المسيحيون الأمريكيون قد تعلموا النظر إلى حقائق الدين بصفتها فى متناول مدركات عقولهم والتعاطى مع المعنى الواضح للنصوص الإنجيلية بصفته واقعيا. ثم غدا من الصعوبة بمكان الحفاظ على هذا التوجه.

بعد داروين، أصبح بالإمكان إنكار وجود الله دونما تحدى القرائن العلمية ذات الموثوقية الكبرى. وللمرة الأولى، أصبح الشك وعدم الإيمان خيارا فكريا قابلا للحياة يمكن الدفاع عنه. لكن الناس احترزوا من استخدام تعبير «ملحد». فضّل المصلح الاجتماعى الإنجليزى جورج هوليوك (١٨١٧– ١٩٠٦)

أن يسمى نفسه «علمانيا» لأنه رأى أن الإلحاد يوحى بالانحلال الأخلاقى. أما تشارلس برادلو (١٨٣٣- ١٨٩١) الذى رفض حلف اليمين البرلمانية، لأنه كان عليه أن يقسم بالله لدى شَغْله مقعده بمجلس العموم، فقد كان يفاخر بأن يدعو نفسه ملحدا - لكنه حدد موقفه على الفور: «لا أقول إنه ليس ثمة إله؛ وإلى أن تخبرنى ما تعنيه بالله، فلستُ على درجة من الجنون لأقول شيئا مثل هذا». لكنه كان يعرف أن الله ليس «شيئاً مميزا تماما ومختلفا فى جوهره» عن العالم الذى نعرفه.

شعر العالم البيولوجى البريطانى توماس هاكسلى (١٨٢٥- ١٨٩٥) أن الإلحاد الكلى مفرط فى دوغماتية لأنه يستخدم مزاعم ميتافيزيقية عن عدم وجود الله على أساس غير كافٍ من الأدلة الفيزيقية. من المحتمل أن هاكسلى كان هو من نحت مصطلح «لاأدرى» فى وقت ما فى ستينيات القرن التاسع عشر. رأى هاكسلى أن اللاأدرية ليست معتقدا بل منهجا متطلبه بسيط: «فى شئون العقل، لا تتظاهر أن الاستنتاجات غير المثبتة أو غير القابلة للإثبات، يقينية». قال إن سقراط، والقديس بولس، وكالفين وديكارت، ولأنهم أبقوا على هذا التحفظ المبدئى، فقد كانوا جميعهم لاأدريين، وإن اللاأدرية هى الآن «المبدأ الجوهرى للعلم الحديث». لكن هاكسلى رأى أيضا العقلانية العلمية دينا علمانيا جديدا يقتضى التحول إلى اعتناقه والالتزام التام به، وأنه سيكون على الناس الاختيار بين أساطير الدين وحقائق العلم، وأنه ليس ثمة حلول وسط: «سيكون على أحدهما أو الآخر الاستسلام بعد معركة لا يُعرف مداها».

من الواضح أن هاكسلى شعر بوجود معركة. فعلى حين أن العلم كان رمزا للتقدم الذى لا رجعة عنه، بدا الدين جزءا من العالم القديم الذى كان من

المحتم له أن يختفى. أما روبرت چى إنجرسول (١٨٣٣- ١٨٩٩)، المحامى، والخطيب والمدعى عـام والذى أصـبح المتـحـدث الرئيـسى باسم اللاأدرية الأمريكية، فقد رأى أن البشرية سرعان ما تنضج وتستغنى عن الله: سيدرك الجميع، يوما مـا، أن الدين قد أصبح نوعا مندثرا؛ فى حين رأى الشاعر والروائى الأمريكى تشارلس إليوت نورتون (١٨٢٧- ١٩٠٨) «فقدان الإيمان الدينى بين الشرائح الأكثر تحضرا فى الجنس البشرى هو خطوة من الطفولة إلى النضج». وبمقدم سبعينيات القرن التاسع عشر، تصلبت تلك القناعة وأصبحت أسطورة جديدة رأت الدين والعلم مشتبكين فى صراع أزلى حتمى.

شكل أنصار العلم، تاريخا تعديليا للعلاقات بين الاثنين، رُوِى بأسلوب منمّق، ظهر فيه أبطال «التقدم» - برونو، جاليليو، لوثر - ضحايا عاجزين فى مواجهة الكرادلة الأشرار والپيوراتينيين المتعصبين. أما الدعائى الأمريكى چويل مودى فقد قال إن الدين هو «عِلْم الشر».

«طُرِد الرجال ذوو الثقافة الرفيعة والتعليم العالى، النساء الورعات الفاضلات واقتيدوا من الأكواخ المتواضعة ومن على العروش بناء على أمور متعلقة بالضمير؛ أو ذبحوا بواسطة الغوغاء المجانين الذين يتحرقون شهوة لله. بُترت أطراف الرجال والنساء وانتزعت عن أجسادهم، وقُلِعت أعينهم، وشوِّهت لحومهم وتم شيها ببطء، وعُذِّب أطفالهم بوحشية أمام أعينهم بسبب الآراء والاختلافات الدينية».

أما إنجرسول، فقد رأى أن «الصراع المميت» قد ترك ندباته على التاريخ البشرى، حيث قام المدافعون الشجعان عن الحقيقة بمعزل عن البقية، «بجهد مضن فى مواجهة الخوف، والعبودية العقلية، والتعصب، والاستشهاد» قاموا بسحب البشرية «بوصة بوصة» مقتربين بها من الحقيقة.

فى عام ١٨٧١، نشر چون ويليام درايپر (١٨١١– ١٨٨٢) رئيس قسم الطب بجامعة نيويورك كتابه «تاريخ الصراع بين الدين والعلم» الذى صدرت منه خمسون طبعة وتُرجم إلى عشر لغات. رأى أنه على حين أن الدين تمسك بجبن بحقائق التنزيل التى لا تتغير، سار العلم قدما وتوسع وأعطانا التلسكوبات والبارومترات، والقنوات، والمستشفيات والصرف الصحى، والمدارس، والبرق، وحساب التفاضل والتكامل، وماكينات الخياطة، والبنادق والسفن الحربية. فالعلم فقط هو الذى «بإمكانه تحريرنا من طغيان الدين.. وعلى رجال الكهنوت أن يتعلموا أن يبقوا على أنفسهم داخل المجال الذى تخيروه، ويتوقفوا عن الطغيان على الفلاسفة الذين، قد أصبحوا يعون قوتهم ونقاء دوافعهم، لن يتحملوا مزيدا من هذا التدخل».

لكن خطاب درايبر الهجومى، أفسده فى النهاية، تحيزه الفج ضد الكاثوليكية.

لم يلق كتاب «تاريخ الحرب بين العلم واللاهوت فى العالم المسيحى» (١٨٩٦) الشعبية الفورية مثل كتاب درايبر، لكنه كان أقوى تأثيرا على المدى البعيد. كان مؤلفة العلمانى المتحمس ديكسون هوايت (١٨٣٢– ١٩١٨) أول رئيس لجامعة كورنيل . جاء فى كتابه.

«طوال التاريخ الحديث، نتج عن التدخل فى العلم لصالح الدين، حتى لو كان مثل هذا التدخل بوازع من الضمير، أكثر الشرور بشاعة للدين والعلم معا – وبشكل ثابت. وعلى النقيض، فكل الدراسات العلمية غير المقيَّدة، أيا كانت مخاطرها المؤقتة على الدين فى بعض مراحلها، قد نتج عنها، ودونما استثناء الخير، الأعظم للدين والعلم معا».

وهكذا، فقد رأى أن الدين والعلم متعارضان ولا سبيل للتوفيق بينهما.

أحدهما خيِّر ومفيد للبشرية، والآخر شرير وخطر. أنه منذ أن أصر أوغسطين على «مرجعية الإنجيل المطلقة»، عمل اللاهوتيون، دونما استثناء «على إجبار البشرية على الابتعاد عن الحقيقة، وتسببوا فى أن يتورط العالم المسيحى لقرون عديدة ويسقط فى غياهب الخطأ والأسى».

وفى واقع الأمر، فقد كانت علاقة الدين بالعلم على قدر كبير من التعقيد وانطوت على تضمينات كثيرة متشابكة من الصعب تحديدها. لكن الهجوم الدعائى المبالغ فيه ظل هو السمة التى تميز النقد الإلحادى للدين، والتى تُتُقبل كحقيقة واقعة. كان سوء طرح درايبر لرأى أوغسطين فى الإنجيل مثالا واحدا فقط على هذا التحيز. كانت القصة المُختلَقة عن اللقاء الذى تم بين هاكسلى وصامويل ويلبرفورس، أسقف أكسفورد، هى إحدى الحكاوى التى ثابر الملحدون على ترديدها وتداولها. قيل إنه فى يونيو ١٨٦٠، بُعيد نشر كتاب «أصل الأنواع»، اشترك الاثنان فى حوار بالجمعية البريطانية تحدث فيه ويلبرفورس بما يروق الجماهير، وبعد أن اتضح من كلامه أنه لا يفهم أى شىء عن التطور، اختتم مداخلته بأن سأل هاكسلى باستظراف عما إن كان يزعم انتسابه لسلالة القردة عن طريق والده أم والدته؛ وأن هاكسلى رد عليه قائلا إنه يفضل أسلافا من القردة على أسلاف من رجال مثل ويلبرفورس الذى يستخدم مواهبه العظيمة لإعتام الحقيقة. وهذه القصة تكبسل، بذكاء شديد، أسطورة «الحرب» (بين العلم والدين) بتصويرها للعلم الباسل الجسور وهو ينتصر على الدين المستكن برضاً فى خيلائه. لكن، وكما أثبت الباحثون مرارا، فلم يكن ثمة سجل لهذا الحوار حتى تسعينيات القرن التاسع عشر، كما أن لا ذكر له فيما دُوِّن عن الحوار فى حينه. وفى واقع الأمر، فقد كان ويلبرفورس مُطّلعا تماما على نظرية داروين ومتمكنا مما جاء بها؛ كما أن

خطابه الذى ألقاه فى المعهد البريطانى أوجز مراجعة كان قد كتبها مؤخراً عن كتاب «أصل الأنواع» والتى اعتبرها داروين نفسه على قدر غير عادى من المهارة، بعد أن اعترف أن ويلبرفورس بيّن نقاطا أغفلها الكتاب وأن عليه التعاطى معها.

ارتبط الرأى القائل بلا أخلاقية العقيدة الدينية عن كثب بأسطورة «الحرب» فى الخطاب الإلحادى الدعائى، وأصبح مكوّنا أساسيا لأيدولوجيا الإلحاد. ظهر هذا الرأى لأول مرة فى كتاب «أخلاقيات العقيدة» (١٨٧١) لويليام كينجدون كليفورد (١٨٤٥- ١٨٧٩) أستاذ الرياضيات بجامعة لندن الذى ذهب فيه إلى أنه من غير المقبول فكريا وأخلاقيا أيضا إقرار أى رأى – دينى، علمى أو أخلاقى – بدون أدلة كافية. وكتوضيح لمعناه، استخدم قصة عن سفينة ركاب معطوبة يعلم صاحبها أنها بحاجة إلى إصلاحات كثيرة، لكنه قرر، ولكى يوفر على نفسه النفقات، أنها قد كتُب لها النجاة فى رحلات كثيرة وأن الله لن يسمح بغرقها وهى تحمل على ظهرها كل هؤلاء الركاب. وحينما غرقت السفينة فى المحيط، أمكنه استلام المبلغ المؤمن عليها به.

لقى كتاب كليفورد قبولا فوريا إذ عبّر عن المزاج السائد. بنهاية ستينيات القرن التاسع عشر، جعل تبجيل العلم فى أوساط كثيرة بصفته الطريق الوحيد المؤدى للحقيقة، من فكرة «العقيدة» دونما برهان علمى أمرا شائنا ليس فقط على المستوى الفكرى بل والأخلاقى أيضا. رأى عالم الاجتماع الأمريكى لستر وارد، أن الخزعبلات (وهو تعبير كان يطبقه بدون تمييز على أية فكرة دينية) أدت إلى وهن المخ عصبياً، وإلى إضعاف النسيج الأخلاقى. قال إنه بمجرد أن يقر الفرد بأن ثمة أفكاراً تخرج عن نطاق الإدراك البشرى، يصبح على استعداد لتقبل أى شىء، فيما ذهب الفيلسوف الإنجليزى چون

ستوارت ميل (١٨٠٦– ١٨٧٣) إلى القول بأن ضلالات العقيدة «تصادق على نصف الأوهام المؤذية التى يسجلها التاريخ» والسذاجة هى فعل جبن بغيض «أعطنى زوبعة وعاصفة الفكر والفعل بدلا من هدوء الجهل والإيمان المميت». أما إنجرسول، فجاء احتجاجه على شكل المقولة التى ما فتئ يرددها، «انفنى من الجنة إن أردت، لكن اسمح لى أولا أن آكل من ثمار شجرة المعرفة».

أما الآن فقد اعتدنا على فكرة أن العلم والدين على طرفى نقيض بدرجة لم تعد معها هذه الأفكار تبعث على الدهشة. لكن فى نهاية القرن التاسع عشر، كان غالبية رجال الدين مازالوا يُجلُّون العلم؛ لم يكونوا بعد قد قدّروا المدى الذى قوضت به الداروينية اللاهوت الطبيعى الذى كانت «عقيدتهم» مؤسسة عليه. آنذاك، لم يكن المتدينون هم الذين يُشعلون وقود الصراع بين المبْحثين، بل المدافعون عن العلم. لم يكن لمعظم العلماء مصلحة فى سحق الدين، فقد كانوا قانعين بمواصلة أبحاثهم، ولم يُظهروا أى اعتراضات إلا حينما كان رجال الدين يحاولون عرقلة أبحاثهم. كان المُروّجون لداروين هم من التحقوا بصفوف الحرب الهجومية فى حملة صليبية معادية للدين. أثناء العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، قام كارل فوجت (١٨١٧– ١٨٩٥) ولودفيج بوختر (١٨٢٤– ١٨٩٩) وإرنست هِكل (١٨٣٤ – ١٩١٩) برحلات فى أنحاء أوروبا وألقوا محاضراتهم الحماسية فى قاعة اكتظت بالحضور. كان فوجت عالما جيدا (رغم أن بعض زملائه ارتابوا فى أنه كان متسرعا فى استنتاجاته) لكنه كان معادياً للإكليروس بضراوة بدرجة أنه حينما كان يتحدث عن الدين كان يفقد منظوره تماما. كان نهجه هو تقديم العقيدة بأسلوب تبسيطى مفرط – مثلا، كان يهاجم، بضراوة أسطورة سفينة نوح وكأنما هى عائق جدى فى سبيل التقدم العلمى– ثم يكرس وقتاً غير متناسب يهاجم فيه خيال المانة ذلك الذى نصبه بنفسه.

حينما كان ثلاثتهم يحوّلون اهتمامهم للدين، كانت أحاديثهم تتسم بعدم الدقة على خلاف نقاشهم للعلم، بحيث تفسد التعميمات الجامحة نقدهم. قال الفيلسوف فريدريش پولسن إنه حينما قرأ «لغز الكون» لهِكل، وكان قد حقق أفضل المبيعات، شعر بعميق الخجل لفكرة أن مؤلفه هو باحث ألمانى يعيش فى بلد البحث والأكاديميا. كان هِكل، مثلاً، قد ذهب إلى أن الأساقفة، أثناء اجتماعهم بمجمع نيقيا، قد اختاروا نصوص أسفار العهد الجديد الأربعة عشوائيا من وسط كومة من الوثائق المزورة وصنعوا العهد الجديد الحالى – وكانت تلك معلومات حصل عليها هِكل من كُتيب إنجليزى شديد البذاءة، حتى أنه أخطأ فى تاريخ انعقاد المؤتمر. أما حينما كان يناقش العلم، كان خطابه يتسم بالحرص والمنهجية والوقار؛ سمات لم يتجل منها شىء فى حديثه عن الدين.

كان هاكسلى يُدرك أنه بغير الإمكان لأى دراسة للعالم الفيزيقى أن تمدنا بأدلة على وجود الله أو على عدم وجوده، من ثم، لم يبدد وقته فى خطابات دعائية هجومية. رأى دراپر مُملا، وفوجت غبيا، ولم يلق منه كتاب بوخنر «القوة والمادة» الذى حقق أفضل المبيعات، سوى كل ازدراء، حيث ذهبت أطروحة الكتاب إلى أن الكون لا هدف له، وأن كل شىء منشؤه خلية واحدة، وأن من يعتقد فى وجود الله معتوه أبله. كان پاسكال قد أوضح أن «القلب لديه أسبابه» فى الإيمان بمعتقدات غير متاحة للقوى العقلانية، ويبدو أن هذا كان ينطبق أيضا على عدم الاعتقاد بوجود الله الذى ظهر قويا فى نهاية القرن التاسع عشر. لم تكن خطابات الملحدين الدعائية الهجومية نموذجا للدقة والموضوعية والتفحص غير المتحيز للأدلة، تلك السمات التى كانت العقلانية العلمية التى يُجلّونها تتميز بها. وعلى الرغم من ذلك فقد جذب هجومهم

العاطفى اللاذع جماهير ضخمة. ظل ثمة نزوع للتعصب يميز الحداثة، كان قد بدا، منذ زمن طويل، نزوع إلى ضرورة التبرؤ من الأرثوذكسية الجديدة كشرط لخلق حقيقة أخرى جديدة. كان الإلحاد مازال مجالا للأقلية، بيد أنه من المحتمل أن الذين كانوا يضمرون شكوكا خفية والذين لم يكونوا قد استعدوا بعد للتخلى عن عقيدتهم، قد وجدوا فى هذا الهجوم النقدى الحماسى الذى كان يصدر نيابة عنهم، تعبيرا تطهيريا عن عواطفهم الدفينة.

كان ثمة آخرون تخلّوا بأسى عن إيمانهم ولم ينتبهم شعور بطولى بالتحدى، أو بنشوة التحرر. فى قصيدته «شاطئ دوفر Dover Beach» يسمع الشاعر البريطانى ماثيو أرنولد (١٨٢٢– ١٨٨٨) هديرا طويلا متراجعا فيما ينسحب الإيمان مبتعدا، ليأتى بنداء الحزن الأبدى. لا يملك البشر سوى التشبث ببعضهم طلبا للسلوى. فالعالم الذى بدا ذات مرة: «متنوعا، مليئا بالأسرار، جديداً» نراه الآن على حقيقته خلواً من أى «فرح أو حب أو نور/ أو يقين أو سلام أو بلسم للألم/ ونحن هنا وكأنما على سهل يلفه الظلام، تتقاذفنا نُذُر مشوشة لصراع وفرار/ حيث تتصادم الجيوش الجاهلة فى ظلمة الليل».

فى أفضل أحواله، ساعد الدين الناس على إقامة ملاذ للسلام داخلهم مكنهم من التعايش الإبداعى مع أحزان الحياة؛ لكن، أثناء العصر العلمى حل اليقين العلمى غير المبرر محل الأمان المُستبطَن. وفيما تراجع الإيمان وانخفض مستواه، شعر الكثيرون فى العصر الفيكتورى بالخواء الذى خلّفه وراءه.

حينما تفحص الفيلسوف الألمانى فريدريتش نيتشه (١٨٤٤– ١٩٠٠) قلوب معاصريه، وجد أن الله قد توفّى هناك، رغم أن القلة القليلة هم من أدركوا

ذلك. فى كتابه «العلم المَرِح» (١٨٨٢)، روى نيتشه قصة رجل مجنون هرول ذات صباح إلى السوق وهو يصيح: «أبحث عن الله». سأله المتفرجون المتعلمون بقدرٍ من المرح ما إن كان الله قد فرّ هاربا أم أنه قد هاجر. لكن المجنون ألح فى سؤاله «أين ذهب الله؟» «لقد قتلناه - أنتم وأنا! إننا جميعا قتلته». تسبب تقدم العلم المذهل فى تهميش الله؛ فقد جعل الناس يُثبِّتون اهتمامهم على العالم الفيزيقى بدرجة أصبحوا معها غير مستطيعين، عقليا وفيزيقيا، أن يأخذوا الله على محمل الجد. كان موت الإله - أى حقيقة أن إله المسيحية أصبح غير معقول - قد بدأ بالفعل يُلقى بظلاله الأولى على أوربا. ووفقا لنيتشه وجدت القلة القليلة، ممن استطاعوا استيعاب تضمينات هذه الواقعة غير المسبوقة، أن «شمسا ما تبدو وأنها قد أفَلَتْ وأن الثقة العميقة قد تحولت إلى شك».

بجعلهم «الله» حقيقة مفاهيمية محضة يمكن التوصل إليها من خلال التفكير العلمى العقلانى، من دون شعائر، صلوات، أو التزام أخلاقى، قتل الرجال والنساء الله بالنسبة لأنفسهم. ومثل اليهود الخنزيرين (بالبرتغال) كان الأوربيون قد بدأوا يخبرون الدين شأنا واهياً لا معالم له، اعتباطياً، بلا حياة. كان المجنون يتوق إلى الاعتقاد فى وجود الله، لكنه لم يستطع. لقد حدث ما لم يكن متخيلا، غدا كل شىء كان رمز الإله يشير إليه - الخير المطلق، الجمال، التنظيم، السلام، الصدق، العدالة - يتعرض للزوال من الثقافة الأوروبية، ببطء وثبات. كان موت الله بالنسبة لماركس مشروعا - شيئاً يجرى العمل على إنجازه فى المستقبل؛ أما بالنسبة لنيتشه فكان قد حدث بالفعل: كانت مسألة وقت فقط قبل أن يندثر حضور «الله» تماما من حضارة الغرب العلمية. وإذا لم يتم العثور على مُطلقٍ آخر يحل محله سيصبح كل شىء

مخلخلاً ونسبيا: «ما هذا الذى كنا إزاءه حينما فصلْنا ارتباط الأرض بالشمس؟» سأل المجنون «إلى أين تتجه الأرض الآن؟ أنسقط الآن باستمرار؟ فى كل الاتجاهات، خَلفًا، وجانبياً وأماماً؟ أما زال ثمة ما هو أعلى وما هو أسفل؟ ألن نضل الطريق وكأنما فى خواء لا نهائى؟». بالطبع، كان نيتشه مطلعا على الأطروحات العلمية والفلسفية التى ترمى إلى إنكار وجود الله. لكنه لم يهتم بإعادة سردها. فلم يمت الله بسبب أطروحات فويرباخ، ماركس، فجت وبوخنر الناقدة. ما حدث، هو ببساطة تغير للمزاج والمناخ العقائدى. ومثل إله السماء القديم، كان الإله الحديث البعيد يتراجع من وعى عِباده السابقين.

كان القرن الذى بدأ بقناعة عن إمكانيات لا حدود لها يستسلم لرعب لا مُسمّى له. لكن نيتشه اعتقد أن بوسع البشر مجابهة خطر العدم بأن يجعلوا من أنفسهم آلهة. فإن بإمكان الإله الذى كانوا قد أسقطوه على أشياء خارجية أن يولد داخل روح بشرية، كسوبرمان Ubermensch يضفى على العالم معنى نهائيا جوهريا. ولتحقيق ذلك، علينا أن نتمرد ضد إله المسيحية الذى عيّن الحدود التى لا يستطيع الطموح البشرى تجاوزها، وتسبب فى اغترابنا عن أجسادنا ورغباتنا، وأضعفنا بمثال التراحم. وكتجسد لإرادته للسلطة، سيدفع السوبر مان بتطور النوع إلى مرحلة جديدة بحيث يصبح البشر، فى النهاية، آلهة. لكن ماذا سيحدث حينما يتصور الناس فعلا أنهم هم الحقيقة الأسمى، وأنهم قانون فى حد ذاتهم؟ ماذا سيحدث حينما تحل الشهوة العارية للقوة والتمكن، تدعمها القدرة الهائلة للتكنولوجيا العلمية، محل تفريغ الذات؛ يوضح سيجموند فرويد (١٨٥٦– ١٩٣٩)، مؤسس علم النفس، النقلة فى المزاج العام التى كان نيتشه قد شخّصها. على الرغم من أنه كان قد نشأ

فى أسرة يهودية كانت تأخذ الدين بجدية كبيرة – أو ربما بسبب نشأته الدينية – كان الله قد مات فعلا بالنسبة لفرويد. لم يصبح ملحدا نتيجة دراساته النفسية، فقد كان مُحللا نفسياً لأنه كان ملحدا. رأى أن فكرة الإله يتعذر الدفاع عنها. كان قد اكتشف كتابات فيورباخ فى عام ١٨٧٥، والذى كان صيته قد زوى منذ أربعينيات القرن التاسع عشر، واعتقد بأسلوب مضمر فى أسطورة «الحرب» حيث رأى أنه يجب القضاء على الدين فى هذا الصراع الذى يبدو وأن لا نهاية له. فالعلم وحده هو الذى باستطاعته ضمان صحة البشر الجسدية والعقلية، وفى الواقع، فإن انتصاره محتم، كما أن عقلانية البشر فى سبيلها إلى النضج والاستقلال، ولابد وأن تحطِم، تدريجيا، القيود التى تعيق تقدمها. كتب فرويد يقول «إن صوت العقل خافت» وسينجح فى النهاية فى إخماد صوت الدين، لكن هذا لن يحدث سوى فى المستقبل البعيد. رأى أنه من الخطر إجبار الناس على الإلحاد قبل الأوان لأن بإمكان هذا أن يؤدى إلى إنكارٍ غير صحى.

درس فرويد الطب بجامعة ڤيينا، لكنه كان عميق الاهتمام بالفلسفة والدين. بيد أنه أجرى دراساته الدينية على ضوء اعتقاده فى موت الله. اعتقد أنه ليس ثمة حاجة لتبرير إلحاده لأن حقيقته كانت بدهية. ففكرة الإله «طفولية بجلاء، غريبة عن الواقع بدرجة أنه من المؤلم لأى أحد ذى توجه ودى نحو الإنسانية أن يعتقد أن غالبية الناس لن يستطيعوا أبدا الارتقاء فوق تلك النظرة إلى الحياة». وبملاحظته التماثل بين الطقوس الدينية والطقوس الهاجسية لبعض مرضاه، انتهى فرويد إلى أن الدين مرضٌ عصابى يقترب من الجنون، وأن مرجع الرغبة فى الله هو خبرة الطفل بالعجز وتوقه إلى وجود من يحميه؛ كما أنه يعكس شغف الأطفال بالعدالة والإنصاف ورغبتهم فى أن تستمر الحياة إلى الأبد.

كان فرويد قد توصل بالفعل إلى نظريته عن أصول الدين قبل أن يبدأ دراسته للدين. قام، ببساطة، بانتقاء بعض النصوص، وجاءت تفسيراته لها على قدر من الغرابة والجموح بحيث تدعم قناعته أن منشأ الدين هو الضغوط النفسية التي تعكس مسارنا التطورى. كان قد تأثر بنظريات چان - بابتيست لامارك (١٧٤٤- ١٨٢٩) التطورية والذى كان قد اعتقد أن لدى جميع المخلوقات الحية حافزا متأصلا للتكيف مع بيئتها. مثلا، فإن الزرافة، ولكى تصل إلى أوراق الأشجار العالية تعلمت أن تمد رقبتها، ثم مررت تلك الخاصية المكتسبة للجيل التالى. ومن منظور يماثل نظرية لامارك، والتى تم إغفالها منذ آنذاك بصفتها تبسيطية، اقترح فرويد أن الدين هو سمة تطورية مكتسبة، تطورت فى استجابة لحادث معين. فى كتابه «الطوطم والمحرم» (١٩١٣) اقترح أن «البطريرك» (كبير القبيلة أو الأب) كان له الحق الحصرى فى كل إناث القبيلة. نشأ عن ذلك عداوة أبنائه واستياؤهم، ومن ثم قاموا بالإطاحة به وقتله. لكنهم بعد ذلك تعرضوا لعذاب الضمير واخترعوا تلك الطقوس الدينية لتخفيف شعورهم بالذنب. أما فى كتابه «موسى والتوحيد» (١٩٣٨)، فقد ذهب فرويد إلى أن الإسرائيليين قد قتلوا موسى فى التيه أثناء أحد الطقوس الذى كانوا يعيدون فيه تمثيل عملية القتل البدئى تلك.

جاء تعريفه للدين فى كتاب «مستقبل وهم» (١٩٢٧) اختزاليا يقلل من شأن الدين حيث قال بأنه تحقيق رغبوى لنوازع غريزية غير واعية، فانتازيا كانت فى يوم ما تمد الناس بالسلوى لكنها الآن صائرة إلى فشل حتمى لأن أساطير الدين وطقوسه تنتمى إلى مرحلة بدائية فى تطور البشر. اعتقد أن الوقت قد حان كى نسمح للعلم بتهدئة مخاوفنا، وتزويدنا بأساس جديد للسلوك الأخلاقى. حازت تلك التفسيرات على الاحترام لأنها كانت متجذرة فى

العلم، لكن كتابات فرويد النقدية كانت معيبة بسبب نظرته غير العلمية للأنثى على أنها إنسان غير مكتمل النضج والنمو: فالدين كان نشاطا مؤنثا، فيما مثَّل الإلحاد إنسانا بعد/ ديني أي ذكرا سليما. تثير نظرته للدين بصفته متجذرا في تبجيل الطفل الصغير للأب التساؤل عما إن كان رفض فرويد للدين مبعثه عداؤه اللاوعيي لوالده.

أُطلق على فرويد لقب آخر الفلاسفة. وبمعنى ما، يمكن النظر إلى علم النفس على أنه ذروة مشروع التنوير، لإخضاع كل الواقع لتحكم العقل. وبفضل أعمال فرويد الرائدة، أصبح من الممكن تأويل الأحلام، وإخراج النزوات اللاوعية إلى الضوء، والكشف عن المعنى الخبئ للأساطير القديمة. لكن فرويد أيضا قلص أهمية مثال التنوير (أي العقل) وحَجّمه بأن بيّن أنه لا يشكل سوى الطبقة الخارجية العُليا للذهن أو للنفس البشرية، وأنه قشرة سطحية لبوتقة تفور فيها الغرائز البدائية وتمور، غرائز ليس بإمكاننا التحكم فيها.

وفيما كان داروين قد كشف عن أن الطبيعة «مُضرجة الأنياب والمخالب» أوضح فرويد أن الذهن البشرى ميدان قتال نخوض فيه صراعات لا نهاية لها مع قوى النفس اللاواعية لا يحدونا فيها سوى أمل واهٍ لحسمها نهائيا.

ألقى فرويد الضوء على أحد توجهات نهاية القرن التاسع عشر الأكثر قتامة حينما اقترح أن الرغبة فى الموت هى نزوع بشرى قوى تماما مثل شهوة الإنجاب والتكاثر. بيد أنه فى نهاية القرن التاسع عشر أيضا كان ثمة مسيحيون أوروبيون كثيرون يعتقدون أن البشر فى سبيلهم إلى التطور والوصول إلى حال جديد أكثر اكتمالا. من جانبهم، كان اللاأدريون مقتنعين أن العالم سيكون مكانا أفضل من دون الله، كان إنجرسول يتطلع إلى مستقبل «يحقق فيه الإنسان، وقد استجمع الشجاعة من انتصاراته المتتالية

على معوقات الطبيعة، حالاً من الجلال الهادئ الساكن، غير معروف لأتباع أية خزعبلات». رأى الشك «رحِمَ التقدم ومَهده»، وأن فكرة أن ثمة «إله شخصى يفعل كل شىء» قد عملت على توالد «البطالة، الكسل، الجهل، والبؤس» ونموها؛ لكن بإمكان الناس الآن توجيه الطاقات التى أوهنها الدين ليتمكنوا من خلق عالم أكثر عدالة ومساواة. أما چون ستوارت ميل فقد كتب يقول «ثمة معركة قائمة، بإمكان أكثر المخلوقات البشرية تواضعا المشاركة فيها، بين قوى الخير وقوى الشر». رأى أن مهمة جيله هى إبطاء «التقدم الذى لا يكاد أحد يستشعره فى الغالب، والذى من خلاله يتم سحق الخير تدريجيا من قبل الشر»:

«إن فكرة قيام الفرد بفعل أى شىء، حتى بأكثر المستويات تواضعا إذا لم يملك فعل ما هو أكثر، من أجل تحقيق هذا (الإبطاء) ولو بقدر قليل، لهىَ أكثر الأفكار الحافزة الحيوية التى بإمكانها إلهام الطبيعة البشرية».

كان هذا، وليس أى اعتقاد فى ما وراء الطبيعة، هو دين المستقبل؛ إذ اعتُبِر أن العمل من أجل الآخرين من البشر هو الذى سيملأ الخواء، الذى وصفه نيتشه.

لكن رؤية الأمل هذه اقتضت فعل إيمان. كانت الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١– ١٨٦٥) والحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠– ١٨٧١) قد كشفتا بشاعات الحروب فى العصر الصناعى، إذ تم تطبيق العلوم الدقيقة لإنتاج أسلحة فتاكة كانت آثارها مميتة ومدمرة ورغم ذلك، بدت الدول القومية الأوربية أسيرة رغبة الموت التى قال بها فرويد إذ بدأ بعد الحرب الفرنسية البروسية سباق تسلح أدى إلى مذابح الحرب العالمية الأولى (١٩١٤– ١٩١٨)، وكان من الواضح أنها اعتبرت الحروب ضرورة داروينية لا يُكتب

البقاء فيها سوى للأصلح. ومن ثم، رأت الدولة الحديثة أنه ينبغى عليها، وبأية تكلفة لها وللآخرين، أن تنشئ أقوى الجيوش وأكبرها، وتُنتج الأسلحة الأعتى تدميرا. أوضح الكاتب البريطانى آى . إف. كلارك، أنه ما بين عامى ١٨٧١ و١٩١٤، كان من غير الطبيعى ألا يمر عام واحد دون أن تُنشر رواية أو قصة فى بلد أوربى لا تتطلع إلى حرب مستقبلية رهيبة. ظلت «الحرب العظمى التالية» تتبدى وشيكة منذرة، كمحنة رهيبة وحتمية فى آن، تنهض منها الأمة وقد تجددت قوتها وطاقتها.

فى مطلع القرن الجديد، عبر الروائى والشاعر البريطانى توماس هاردى (١٨٤٠– ١٩٢٨) عن هذا المأزق بأسلوب زخم ونظرة عميقة. عبر فى قصيدته «السمان والظلام The Darkling Thrush» (٣١ ديسمبر ١٩٠٠) عن العزلة الكئيبة التى تعانيها روح الإنسان بعد إقصائها عن الأساليب التقليدية للتوصل إلى معنى للحياة. وصف «المعالم الحادة» لمشهد الشتاء بأنها «جثة القرن»؛ بدا للشاعر أن كل روح على الأرض قد فقدت توهجها وحماسها مثله. وفجأة يبدأ طائر سمان عجوز، «هزيل، مُضنَى وصغير»– يغنى، يدفع بروحه إلى الكلمة المتنامية. وفيما استمع إلى «أغنية المساء» هذه الصادرة من الأعماق والمليئة بالمشاعر، لا يملك الشاعر سوى أن يفكر، بهدوء وتقبل حزين أنه لا يوجد سبب للأغانى/لمثل هذا الصوت المنتشى/ سبب مكتوب على الأشياء الأرضية/ البعيدة أو القريبة حولنا/ لكننى أعتقد أن ثمة أملاً مباركاً/ يسرى مرتعدا فى هواء ليله السعيد/ أملاً يعرفه هو/ ولا أدرى أنا عنه شيئاً».